اسم الدرس : تفسير سورة سبأ (٦) | الآيات [٤٠ : ٥٤]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد ﷺ.

نختم اليوم مجالس تفسير سورة سبأ :

{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ * فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ * وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ * قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ * وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ * وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ * وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ}[سبأ ٤٠-٥٤]

نستكمل بإذن الله ﷻ تفسير سورة سبأ.

كنا قد توقفنا عند قول الله ﷻ {وَيَومَ يَحشُرُهُم جَميعًا ثُمَّ يَقولُ لِلمَلائِكَةِ أَهؤُلاءِ إِيّاكُم كانوا يَعبُدونَ* قالوا سُبحانَكَ أَنتَ وَلِيُّنا مِن دونِهِم بَل كانوا يَعبُدونَ الجِنَّ أَكثَرُهُم بِهِم مُؤمِنونَ* فَاليَومَ لا يَملِكُ بَعضُكُم لِبَعضٍ نَفعًا وَلا ضَرًّا وَنَقولُ لِلَّذينَ ظَلَموا ذوقوا عَذابَ النّارِ الَّتي كُنتُم بِها تُكَذِّبونَ}[سبأ ٤٠-٤٢].

المواجهة بالحقائق:

بعد شوط من فضائح الفكر المادي وطريقة التفكير المادية، وسقوط طريقة تفكير المشركين في التقييم عن من الأقرب عند الله ﷻ ؟ فليس من معه مال هو الأقرب عند الله ﷻ، قال الله ﷻ: {وَما أَموالُكُم وَلا أَولادُكُم بِالَّتي تُقَرِّبُكُم عِندَنا زُلفى إِلّا مَن آمَنَ وَعَمِلَ صالِحًا}.[سبأ ٣٧]

قلنا أنه يأتي -غالبًا- في السورة شوط من **الدار الآخرة**، وبعد ذلك شوط من **المحاجة والمجادلة**، وبعد ذلك شوط من الدار الآخرة ،وبعد ذلك شوط من المحاجة والمجادلة.

تعلم من النص القرآني كيف تدير نقاشاتك:

وهذه نقطة مهمة جدًا في النقاش مع أي أحد، والمناظرات والنقاشات لا يصح أن تخلو من ذكر الدار الآخرة، يجب عندما تتناقش مع أي أحد في أي قضية حتى إذا كان ينكرها، حتى إذا كان ينكر الدار الآخرة، **هو مركوز في فطرته** ذلك، فأنت تضغط على هذه النقطة، فيجب أثناء النقاشات سواء في قضية الشريعة، في قضية توحيد الله ﷻ، في قضية دين الحق، أي قضية لابد أن تُدخل فيها الدار الآخرة.

فبعد هذا الشوط جاء قول الله ﷻ {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا}[سبأ ٤٠] نقلة من الدنيا إلى الدار الآخرة، {ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ}[سبأ ٤٠] .. "جميعًا" من هم؟

تذكر من هم الفئات التي تتكلم عنهم السورة؟

كما قلنا أن مواضيع السورة أن المشركين معهم عدة وعتاد وأموال، هذه نقطة، النقطة الثانية أنهم ينقسمون إلى أهل استكبار وأهل استضعاف، الذين استكبروا والذين استضعفوا، بمعنى أنه هناك رؤساء يسيطرون على الأمور ويضحكون على الضعفاء، هاتان هما أهم نقطتين معنا في السورة.

إذا "جميعا" المقصود هنا كل الفئات فالكل سواسية يوم الفصل:

{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا}[سبأ ٤٠] المستكبرين والمستضعفين سيجتمعون ثانية، المستضعفين وضعوا المشكلة على المستكبرين ففضحهم الله، والمستكبرين تبرؤوا منهم وقالوا: {أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ}[سبأ ٣٢]، وضعوا المشكلة على الآلهة التي كانوا يعبدونها، فربنا ﷻ يجمعهم مع الملائكة، قالوا: نحن كنا نعبد الملائكة؛ لكي تشفع لنا عندك يا رب، كأنهم يريدون أن يلقوا التهمة عنهم، فمرة يلقونها على المستكبرين ومرة يلقونها على الملائكة.

بعدما فشلوا في القاء التهمه علي بعضهم البعض ألقوها علي الملائكة!

فربنا يسأل الملائكة أمامهم؛ حتى تتبرأ الملائكة منهم، {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ}[سبأ ٤٠] لماذا يسأل الله الملائكة هنا؟ حتى يُعلِن الملائكة البراءة منهم، كما سيقول ربنا ﷻ

لعيسى عليه السلام يوم القيامة {أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ}[المائدة ١١٦]؟ وهم واقفون يسمعون {أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ}[المائدة ١١٦]؟ قال {سُبْحَانَكَ}[المائدة ١١٦] فالسؤال هنا ليس سؤالًا يسأله ربنا ﷻ لكي يعلم! هو يعلم ﷻ؛ لكن حتى يتبرأ منهم أمام الله ﷻ وأمام الجمع، فربنا يسأل الملائكة: أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون أيها الملائكة؟

فتتبرأ الملائكة قالوا:{سُبْحَانَكَ}[سبأ ٤١]!

بعض المفسرين قال كلمة جميلة جدًا قال: "من تعظيم الملائكة لله ﷻ لم يقدروا أن يقولوا: سبحانك ما كانوا يعبدونك، لم يأتوا حتى بلفظة العبادة ونسبوها إلى أنفسهم حتى إذا كان بالنفي، قالوا: {سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم}[سبأ ٤١]، يا رب نحن نعبدك وليس لنا غيرك، أنت ولينا من دونهم، {بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ} ماذا كانوا يعبدون؟ {بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ}[سبأ ٤١].

بعضهم قال: {كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ}[سبأ ٤١]؟ لها معنى من اثنين:

المعنى الأول: إما أنهم كانوا يعبدوا الجن وليس الملائكة، وأنهم كانوا يكذبون عندما قالوا: يا رب، نحن كنا نعبد الملائكة، لكن عندما وجدوا الجن دخلوا النار ووجدوا الملائكة يكرمهم الله ﷻ وهم من عباد الله ﷻ المكرمين، فقالوا: يا رب نحن كنا نعبد الملائكة، فالملائكة قالت: لا، أنتم كذابون، أنتم كنتم تعبدون الجن ولم تكونوا تعبدوننا.

المعنى الثاني: وبعض العلماء قال: لا بل معنى الآية:{بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ}[سبأ ٤١]، أن الجن خدعوهم، وصورا وزينوا لهم عبادة الملائكة، فهم اتبعوا كلام الجن حقيقة، الجن الذين خدعوهم وأقنعوهم.

لذلك كانوا يسمون الأصنام تسمية الأنثى سموا "اللات"، "مناة "، يسمونها تسمية مؤنثة، كانوا يعتقدون -في بعض اعتقاداتهم- أن الأصنام هذه تحل فيها الملائكة، وأن عبادتهم لهذه الأصنام هي شفاعة يتقربون بها إلى الله؛ لأنهم لا يقدرون أن يعبدوا الله مباشرة، فيتقربون حتى تشفع لهم الملائكة.

ولكن لم اتخذوا هؤلاء الشفعاء؟ لأنه لا يريد أن يلتزم بدين، يريد أن يفعل ما يريد، ثم يأتي للصنم يقول له: اجعله يشفع لي ويغفر لي ذنوبي، أو لكي يحقق أمانيه، يريد ولد، يريد أن ينتصر، فيعبد هذه الأصنام.

فربنا ﷻ يفضحهم والملائكة تفضحهم فتقول:{بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ}[سبأ ٤١].

إذا بعد هذا الشوط نستطيع الإقرار بأن القوي هو المتصل بالله وليس الذي معه المال والقوة.

وهذا يُعرِّفك أن هناك نقطة مهمة معنا في السورة، أن من أخطر أسباب الشرك: الإحساس بالضعف، **ومن أخطر أسباب ترك الوحي: الإحساس بالضعف.**

لذلك السورة تبين أن **المتصل بالله هو القوي**، ستأتي معنا {إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ}[سبأ ٤٨].

لذلك الإحساس بالضعف يجعل الإنسان عنده تبعية، يجعله تابعًا، يجعله مقلدًا، يجعله يرى عقائد الأقوام المنتصرين ويقلدهم، لديه إحساس بالضعف، غالب تقليد الشباب للغرب –ولو في بعض الموضات شكلها سيء– نتيجة أن لديه هزيمة نفسية، إحساس بالضعف، فكان المستضعفون يبحثون عن أي قوة غيبية يعبدونها، فكانوا يلجأون إلى الجن، كانوا عندما ينزلون في وادي يقولون: "أعوذ بسيد هذا الوادي"، خائفًا من الجن.

فبدلًا من أن يلجأ إلى الله ﷻ، يبحث عن أي قوة يلجأ إليها، المستضعف يلجأ للمستكبر، والمستكبر يلجأ إلى الجن، كلهم يبحثون عن قوة، يلجأون إلى المال، يلجؤون إلى العُدّة، وربنا ﷻ يقول في السورة أن **القوة في اتصالك بالوحي، بالله ﷻ.**

يوم القيامة تظهر الحقائق المطلقة:

فيقول الله ﷻ : {فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا}[سبأ ٤٢]، الأمور ظهرت على حقيقتها، لا أحد يملك لغيره أن ينفعه ولا حتى إن أراد أحد أن يضر شخصًا آخر، لن يقدر على أن يضره. فحتى الآلهة إذا أرادت أن تضركم لن تستطيع أن تضركم، ولو أرادت أن تنفعكم لن تستطيع أن تنفعكم.

{فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ}[سبأ ٤٢].

ليست الحقائق الكونية فقط بل وحقائق نفوسهم، مخاوفهم، وما كانوا يهربون منه:

الموضوع هنا أنهم كانوا يعبدون الجن أم أنهم كانوا يكذبون بالنار؟

فكأن المشكلة الأساسية أنهم كانوا يكذبون بالنار، وأن موضوع الجن وعبادة الملائكة وعبادة الأصنام، كل هذا هروب من قضية النار، **كل هذا هروب** من أنه يعترف أن هناك بعث وأن هناك حساب، وأن الذي لن يؤمن بالكتاب ولن يلتزم بالتعليمات سيدخل النار، كل الذي فعله هروب، نجد أن الشرك دائمًا هو حيلة نفسية للهروب من تبعات الحساب والجزاء.

سواء: الذي يتخذ شفيعًا، الذي يذهب للقبر، الذي يتخذ أصنامًا، الذي يذهب -عند النصارى- إلى كرسي الاعتراف، أن يتخذ وليًا من دون الله ﷻ، كل هذه حيل نفسية كي لا يلجأ إلى الله مباشرة؛ لأنه **يعلم أنه لكي يلجأ إلى الله يجب أن يلتزم بأمر الله.**

هو لا يريد أن يلتزم بأوامر الله، فهنا يدخل الشرك، فربنا يقول لهم: {ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ **الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ**}[سبأ ٤٢]، مشكلتكم الأساسية كانت مع النار، وعبادة الملائكة وعبادة الجن، كل هذا كان هروبًا من الالتزام بأمر الله ﷻ.

ختام السورة:

ثم بعد شوط الدار الآخرة ورجوع للدنيا، ويبدأ ختام السورة.

المفترض أنه على مدار السورة:

*كلام عن قدرة الله المطلقة.

*كلام عن الملك والعلم المطلق لله ﷻ.

*نماذج من التاريخ: سيدنا داوود وسيدنا سليمان وقوم سبأ تدل أن الملك لله ، وأن الله قادر على أن يعطي الملك وقادر على أن يسلب الملك.

*شوط من الدار الآخرة بين المستضعفين والمستكبرين.

*حقائق علمية واضحة أن ليست الأموال والأولاد هي التي تقرب عند الله.

بعد هذا الشوط كله لم يعد هناك شيء يتطلب الوضوح، **أصبح الموضوع واضحًا**، فربنا يقول: { وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ}[سبأ ٤٣] القضية هنا أصبحت واضحة أخيرًا، بعد آخر السورة شوط من الوضوح التام، ماذا يقولون بعد هذا كله؟

لاحظ اختلاف أسلوب المستكبرين بين بداية السورة ونهايتها.

وأيضا لاحظ أن سبب هذا الاختلاف هو أن الحقائق صارت واضحة.

في المرة الأولى –التي قبلها– قالوا: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ}[سبأ ٣٤]

بدأوا يقولون شبهات، فحدث رد على الشبهات.

أما هنا في ختام السورة، فقالوا ثلاث جمل –هذه الآيات من الآيات التي قد تختلط في الحفظ– قالوا ثلاث جمل:

*{قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ}[سبأ ٤٣] هذه الجملة الأولى.

*{وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى}[سبأ ٤٣].

*{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ}[سبأ ٤٣].

لماذا قالوا ثلاث جمل؟ لماذا مع كل جملة جاءت كلمة **قال**؟

لماذا لم يأتِ الثلاثة معطوفين على بعضهم البعض؟ لماذا لم يقل الله ﷻ : [وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا مَا هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عَمَّا كان يعبد آباؤكم ومَا هذا إلا إفك مفترى وإن هذا إلا سحر مبين]؟

لماذا عُطِفَ في كل مرة قالوا؟ ولماذا في الثالثة تحديدًا أظهر كلمة [**الذين كفروا**]، ولم يقل [وقالوا]؟

معلومة جانبية عن مهارات التفسير:

هناك نقطة مهمة في التفسير، **يقوم التفسير على مرحلتين**:

المرحلة الأولى: **إلتقاط أن الآية بها شيء**: بها تقديم، بها تأخير، لفظ غريب، اختصاص للسورة، هذا الجزء الأول من التفسير.

الجزء الثاني: **لماذا حدث ذلك؟**

فيجب أن يكون لديك حِس الالتقاط، هذا الجزء الأول، أن هناك شيء في الآية، فهذه الآية مبنية على ثلاث جمل، لماذا هجومهم الإعلامي فصلوه عن بعضه؟

ولماذا في الثالثة تحديدًا قال الله {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا....}[سبأ ٤٣]، ولم يقل وقالوا؟

مع إنها معطوفة على ما قبلها؟ كان متوقعًا أن يقال (وقالوا) مثلها؟

نعود لتفسير الآيه، ما سبب العطف؟

إذًا، لماذا فصلوهم عن بعض؟ **لأننا سنجد هنا أن أهل الباطل يقسمون الشبهات ويركزون على كل شبهة بمفردها لفترة ما**، فكأنهم اهتموا فترة بهدم الداعية، وفترة بهدم كلام الدعوة، وفترة .. سنقول ما هي الثالثة.

ماهي الشبهات التي أثاروها عندما سمعوا الوحي؟

إذًا هو ركز في البداية {وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ...}[سبأ ٤٣] عن من يتكلمون؟ **عن النبي** ﷺ، يتكلمون عن الداعية، عن النبي ﷺ.

والثانية في ماذا يطعن؟{وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى...}[سبأ ٤٣] "**هذا**" ماذا هو؟ **القرآن**.

إذًا أول تركيز: يُركِّز على الشخص الذي يتكلم؛ يهدمه، الجملة الثانية يُركّز على المنهج الذي معك {وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى...}[سبأ ٤٣] هذا هو القرآن. يهدم النبي ﷺ وهو يريد ذلك، ولكن أنَّى له ذلك؟! يريد أن يهدم النبي ﷺ –الداعي–، يريد أن يهدم القرآن –الوحي–.

والثالثة؟ {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}[سبأ ٤٣] على ماذا يقول أنه سحر؟ هل يعرف أحد؟

هو تكلم عن النبي ﷺ وتكلم عن القرآن، الشيء الثالث الذي قال عليه سحر، ما هو؟

التأثير، نعم.. **تأثير القرآن**، تلاوة النبي ﷺ للقرآن أدى لتأثير على الناس، بدأوا يستغربون، فقالوا بالتأكيد ما هذا التأثير إلا سحر.

هو الآن يقول عن النبي ﷺ، سنمسك شبهاتهم ..، يقولون هذا مجنون، نقول لهم: الكلام الذي يقوله، هل يقوله أحد مجنون؟

فيقولون الكلام هذا كذب؟ تقول له: مجنون يقول كلام كذب، يفعل هذا التأثير؟

يقول أن هذا التأثير سحر؟ أمسك في البداية فكرة هدم الداعية، كيف يهدم الداعية؟

{وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ **يُرِيدُ** ..}[سبأ ٤٣].

اتهموه باتهامين أو يريدون أن يثيروا شبهتين:

- الشبهة الأولى: **أن له إرادة خفية من هذا الكلام**، له مطالب.

دائمًا أهل الباطل لا يتصورون أن هناك أحد يفعل شيئًا لله.

فمثلًا يدخل أحد من أهل الباطل يقول: كم يُدفع لك؟!

تقول له: والله لا شيء .

فيقول: لا أنت أكيد يُدفع لك..!

هو لا يتصور ولا يوجد عنده أبعاد ..

-أنا لا آخذ شيء والله، لا تصدقوني أم ماذا؟-

هو ليس لديه تصور..

يقول: أنت أكيد تقول الشريعة لأنك .. تريد كذا وكذا، هو دائمًا يريد أن يتهمك أنك تريد شيئًا من وراء ذلك، {إِنْ هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ}[سبأ ٤٣] يريد أن يكون له زعامة، يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم، يريد أن ينزع زعامة الآباء، ويصبح هو الزعيم، يبحث عن الزعامة، يبحث عن السيطرة، يبحث عن الرئاسة، يتهمك بذلك.

- الشبهة الثانية: **أنه يستثير قضية الآباء والأجداد.**

وكأنهم مثلًا متمسكين بها، هو أصلًا عندما لا يعجبه الصنم كان يلقيه ويأتي بغيره، أو يأكله، ويأتي بغيره، وإذا أباه ضايقه، بإمكانه أن يقتله أو يتشاجر معه من أجل ناقة، لكنه هنا يستثير حمية الآباء، وهذه كانت أكثر حمية موجودة عند العرب، حَمِية الآباء، الفخر بالآباء، لدرجة أنه عندما أراد الله ﷻ أنه يأمر العرب والمسلمين أنهم يذكروا الله ﷻ قال: {فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا}[البقرة ٢٠٠] كانوا يفتخرون بذكر الآباء فيستثير الحمية.

انتبه! أن نفس الأسلوب مستمر في أثارة الفتن فلا تتأثر.

وهذه نقطة مهمة جدًا، يفعلها أهل الباطل عندما يريدون أن يصدوا أحدًا عن الدعوة وعن الدعاة، يتهم الدعاة بأنهم ضد الوطن، ضد القومية، ضد الوطنية، ضد شيء له حَمِية عند الناس وحسب، أي شيء.

فيتهم الداعية ويقول أن هذا إنسان ليس وطنيًا، هذا إنسان ليس كذا ..، ويتهمونه بأنه يريد أن يبعدهم عن تقاليد الآباء، ويبدأوا بإثارة الشبهات فانتهزوا شبهة استثارة الحَمِية لماذا يريدون استثارة الحَمِية؟! ولماذا أسلوب الخطاب هكذا؟! الخطاب هنا يدل على بدء حدوث تأثير من دعوة النبي ﷺ، وأصبح هناك أُناس تستَجيب، وبدأ بعض الضعفاء يتأثرون بالآيات السابقة، الآيات التي تصف الحوار بين المستَضْعَفين والمستكبِرين يوم القيامة، بدأ بعض الضعفاء يستجيبون لهذه للدعوة.

بم اتهم المشركون الصادق الأمين؟

فقال المشركون يجب أن نقوم بحملة ضد النبي ﷺ، فقالوا سنقول أن هذا الداعية به مشكلتَين؛ المشكلة الأولى: أنه يطلب الزعامة ولا يريد الحق، أمَّا الثانية: أنه يريد أن يبدل دين الآباء والأجداد.

فيسألوهم -إذا فكّر أحدهم-، كيف هذا والكلام الذي جاء به لم يأتِ به أحد؟! فقاموا بشنِّ حملةٍ ثانية، وتكرار كلمة "وقالوا" تدل على وجود اهتمام بكل شبهة على حدة، فالأولى يصنعون عليها حلقة كاملة، أو مسلسل كامل، أو برنامج كامل، وهذه بمفردها شبهة كاملة، والثانية أيضًا شبهة كاملة، لها مسلسل كامل وبرنامج كامل، فتجده يصنع برنامجًا أو حلقة كاملة عن البخاري كي يهدم شيئًا في الدين، وعن السنة ولا يذكر الشبهات مع بعضها، بل تجده يفصل الشبهات.

والتفصيل في الشبهات يكون عندما يجدون استجابة للدعوة، وأن هناك من بدأ يسير مع النبي ﷺ.

الشبهة الثانية ضد الوحي، أن يهدم المنهج الذي جاء به الداعية {وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى}[سبأ ٤٣]، والإفك هو نوع من الافتراء، لكن زيادة في السُبَّة، وزيادة في الطعن في الوحي، فيقولون أن الذي جاء به كذبًا، وكذب لم يأتِ به من أحد، بل كذب اختلقه هو، وقالوا ذلك لأن شبهة أنه تعلُّم هذا الكلام من شخص آخر أثبتت فشلها.

لا تتغافل عن نفسك وتأمن علي نفسك الفتنة، فالشبهات متجددة لا تنقطع، راقب نفسك جيدا باستمرار.

ولاحظ أن المشركين يقومون بشيئين، دائمًا ما يقومون بتحديث (updating) للشبهات، دائمًا يأتي بشبهات جديدة، ولكن مشكلته أن شُبُهاتِه الجديدة تتعارض مع شُبُهاتِه القديمة، وهذا أصلًا دلالة على أنه كذاب؛ فيقول على أحدهم أنه شاعر ثم يقول على نفس الشخص أنه مجنون ولا يمكن أن يكون هناك إنسان مجنون شاعر. أو يقول على أحدهم أنه شاعر ثم يقول عليه ساحر. إذًا أهو شاعر أم ساحر؟ فتتعارض التُّهَم، هنا قالوا {إِفْكٌ مُّفْتَرًى}[سبأ ٤٣] أي أنه هو من افتراه ثم يقولوا لا بل {أَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ}[الفرقان ٤]، وبعد ذلك يقولون بل يأخذه من أهل الكتاب، فشبهاتهم تتعارض.

ما الأسلوب الذي يتكلمون به؟

{وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا..} ولاحظ أن هذه الجمل الثلاثة جاءت بصيغة الحصر والقصر {مَا هَٰذَا إِلَّا..}[سبأ ٤٣]، {مَا هَٰذَا إِلَّا..}[سبأ ٤٣]، {إِنْ هَٰذَا إِلَّا..} يتكلمون بقمة التوكيد ، {مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ...}، {مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ...}، {إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ...} لم يقولوا [هذا رجل يريد أن يصدكم أو هذا إفك مفترى أو هذا سحر] لا بل **يتكلم بصيغة الحصر والقصر**.

وكما قلنا أن هذه لغة شخص بدأ يهتز وبدأت الناس تتركه، فأصبح يشعر أن عليه القيام بحملة إعلامية يرد بها عن المستضعَفين الذين أصبحوا يتركونه.

أمَّا الحملة –الشبهة– الثالثة: وكما قلنا أن الأولى كانت على النبي ﷺ والثانية على القرآن، والثالثة على **تأثير الوحي في الناس**، لأنه لو سمع هذا الكلام أي عاقل، فسيسمع الأول يتهمه في نيته؛ فيقول كيف والكلام الذي معي يقول بأنه صادق؟

فيقولون له: الكلام الذي جاء به كذب، فيرد عليه: كيف وهذا الرجل حين يتكلم بهذا الكلام يؤثر في الناس!

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ}[سبأ ٤٣] قالوا للحق:أي لتأثير الحق {لَمَّا جَاءَهُمْ}[سبأ ٤٣] أى لما ظهر أمامهم فليس لهم عذر، فقد كان أشراف قريش يسمعون سيِّدنا أبو بكر الصديق يُصَلّي في فناء بيته، لم يخرج للخارج بل كان يصلي في ساحة في فناء بيته وكان يرفع صوته بالقرآن، وكان رجلًا بكَّاء عند قراءته للقرآن، فكان يتقذَّف عليه نساءُ وأطفال قريش منبهرين أن هناك شخص يقرأ القرآن بهذه الطريقة.

ما هي دلائل تأثير الواحي علي النفوس؟

رُغم كونهم مشركين، فكانوا يعجبون بصلاة أبي بكر الصديق؛ فأفزع ذلك أشرافَ قريش –تخيل أن مجرد قراءة القرآن أفزعتهم–، فتجمعوا وطلبوا من أبي بكر الصدِّيق ألَّا يصلي بعد ذلك حتى لا يؤثر في الناس، فهم يخافون من تأثير القرآن على الناس.

حكى لي أحد الإخوة أنه استُدعي كي يمنع من الصلاة بسورة مريم، فسمح له أن يصلي بأي سورة أخرى إلا سورة مريم إذا أراد أن يصلي، مجرد القراءة في الصلاة دون شرح، مُنع من الصلاة بسورتي مريم والمائدة، شيء عجيب جدًا أن يخاف حتى من قراءة القرآن ، وقد استطلنا في هذا المعنى في تفسير أواخر سورة الحديد.

فسروا قوة تأثير الوحي أنه سحر لشدة تضحية المسلمين لهذا الوحي.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ} لما ظهر أمامهم عيانًا {إِنْ هَٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ}[سبأ ٤٣] لأنهم لا يجدون تفسيرًا لما يحدث، كيف يستجيب الناس؟ وكيف يترك الرجل أباه الغني وأمه الغنية ويصبر

على التعذيب؟ كيف يحدث ذلك؟ بالتأكيد هناك حق، بالتأكيد يشعر بشيء من داخله يجعله يضحي. فيقولون أن هذا سحر، فما الذي يجعل الرجل يترك أرضه وقومه وماله ويتبع هذا الدين ويتعرض للخطر؟ ماذا يستفيد؟ فيقولون ليس لهذا حل إلا أنه سِحر.

لماذا لم تأتي آخر جملة معطوفة علي ما قبلها مباشرة؟ و ذكر تفصيلا قوله "الذين كفروا"؟

ذكر العلماء سببين لكلمة {الَّذِينَ كَفَرُوا} أنه من شدة اعتنائهم بالجزء الثالث، كان أكثر كلامهم عنه، وأن كلمة {جاءَهُمْ} بمعنى الظهور، وكلمة {كَفَرُوا} بمعنى غطُّوا –الكافر أي الذي يغطي الشيء–، فكلمة {جاءَهُمْ} أي ظهر الحق متضادة مع كلمة {كَفَرُوا}.

وبعض العلماء فسرها بمعنى آخر وقالوا أن المقصود هنا ب {الَّذِينَ كَفَرُوا} أي **المستكبرين**.

فيكون تفسير الآية {وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى} وقال المستكبرين من الكفار للضعفاء {إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ}[سبأ ٤٣].

فعندما وجد المستكبرون أن الناس بدأوا ينفضون من حولهم، بدأوا بشنِّ حملة لانتزاع المستضعَفين مرة أخرى. {قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا}[سبأ ٤٣] هذه حملة قام بها المستكبرين لاسترداد المستضعَفين مرة أخرى بعد أن آمنوا، فيقصد ب{الَّذِينَ كَفَرُوا}[سبأ ٤٣] الذين استكبروا.

كما قلنا أن السورة مليئة بالمستكبرين والمستضعفين وأن هناك أناس يملكون القوة والعتاد ويخافون أن يُسحب البساط من تحت أقدامهم.

إذا يلقون شبهة أنه سحر مع أسلوب الحصر والقصر في الكلام فيصلون لمرادهم من إضلال الناس.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ}[سبأ ٤٣]

أي أن هذا ليس سحرًا عاديًا بل سحر مبين، أي سحر واضح؛ وتجد أن المستكبرين هنا يجعلون كلامهم واضحًا، فتخيل أن أحد المستضعفين بدأ يُسلم ويؤمن بالوحي فيأتي المستكبر ويقول له:- أنا لا أفهم ما تفعله، فالأمر واضح أمامك أن هذا شخص يريد الزعامة والذي جاء به كذب والتأثير سحر واضح، الأمر واضح للغاية.

فيُظهر أنه واثق فيما يقول فتجده يستعمل أسلوب الحصر والقصر ويستعمل ألفاظ {إِفْكٌ مُّفْتَرًى}[سبأ ٤٣]، {سِحْرٌ مُّبِينٌ}[سبأ ٤٣]...، وطبعًا أهل الباطل في عصرنا يسيرون على نفس نهجهم؛ المعاصرون يدرسون هذا الكلام جيدًا ويتفرعون من هذه الأصول والقواعد المقتضبة، فهم يتخذون قاعدة، ويسيرون عليها، ويتواصون بالعمل بها كما قال ربنا ﷻ {أَتَوَاصَوْا بِهِ}[الذاريات ٥٣]، كأنهم يوصون بعضهم بعضًا بفعل ذلك.

ما سبب كل هذه الأفعال؟ -شدة إنكار الوحي والقاء الشبهات المختلفة وتأصيلها في النفوس-.

فيقول الله ﷻ معاتباً لهم: كيف تنكرون الوحي؟ هل قارنتموه بوحي آخر أو بكلام أهل الكتاب حتى تقولون عليه أنه كذب ولا يدعو إلى التوحيد؟

{وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا}[سبأ ٤٤].

أي أن الله ﷻ لم يأت إليكم بوحيٍ قبل ذلك حتى تقارنوه به وتكتشفوا أنه كذب، فكل الكتب تدعوا إلى التوحيد ورفع الظلم، فلذلك تجد أن المتواضعين الذين أرادوا الحق من أهل الكتاب سواء اليهود أو النصارى لما سمعوا القرآن قالوا أن هذا الكلام خرج كله من مشكاة واحدة، وهو نفس الوحي وأنه حقًا دعوة إلى التوحيد، فيسلم على الفور، أو حتى **يعترف** إن لم يسلم كهرقل، فيسمع ويقر أن هذا الكلام وحي، والنجاشي يسمع ويقر أن هذا الكلام وحي، وعبد الله بن سلام يسمع ويقر أن هذا الكلام وحي، فهو يقارن بما عنده في الكتاب.

فربنا يقول لمشركي مكة: هل قارنتم هذا الكتاب بكتاب آخر فلذلك رددتموه؟ {وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا}[سبأ ٤٤].

أو معنى الآية: لقد ضيَّعتم أعظم شرف لكم وهو الكتاب، فبدلًا من تدارسه تردُّوه {وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا}[سبأ ٤٤] أي أنتم لم تنالوا هذا الشرف من قبل، أفبعد أن جاء هذا الشرف إليكم تتركونه؟ فأنتم من المفترض عليكم أن تنكبوا عليه وتتدارسوه، فبدلًا من فعل ذلك تتركونه؟

{وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ}[سبأ ٤٤] أي أنهم كانوا لابد أن يفرحوا بالقرآن، لأن بعض العلماء قال أن العرب دائمًا كانوا يشعرون بالنقص فكانوا يسمون "بالأميين"، وفي المقابل كان هناك "أهل الكتاب"، فكان العرب يشعرون ببعض النقص، وذكر بعض المؤرِّخين أن هذا –الشعور بالنقص–من أهم أسباب انتشار الإسرئيليات لأنهم كانوا دائمي التطلع ويريدون معرفة الغيبيات من الخلق والشيطان والجن والملائكة والسماوات والأرض وما بعد الموت وما قبل الحياة، هو يريد أن يعلم.

فكلما أراد أن يعرف شيئًا، يذهب ويسأل أهل الكتاب، فيجيبون عليهم.

فيقول لهم الله ﷻ جاءت لكم الفرصة، وجاء لكم نذير وجاء لكم الكتاب الحق، أفتتركونه؟ المفترض منكم أن تسارعوا لتنالوا هذا الشرف، أفبعد أن جاءكم تتركونه؟ سيكون لديكم كتاب، وهو الكتاب الأوحد الحق، وتتركون هذا الكتاب؟

ثم يقول لهم الله كآخر تهديد قبل الخمس آيات المتتاليات التي تبدأ ب{قل} والتي ستُختم بها المناظرة في السورة: {وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ}[سبأ ٤٥]

قبل التهديد يذكرهم الله بنعمه عليهم:

الله ﷻ يقول لهم {وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}[سبأ ٤٥].

أي يا كفار قريش اعلموا أن من قبلكم قد كذَّب أيضًا مثلكم، فماذا حدث لهم؟

{وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}[سبأ ٤٥] أي كذَّب الذين من قبل كفار قريش.

لفتة تفسيرية مهمة، **الضمائر** علام تعود؟

وهنا يجب الانتباه في التفسير عما يعود عليه الضمير، ومن أهم أسباب الخلاف في تفسير الآية، الاختلاف في عما تعود عليه الضمائر، بمعنى أنه مثلًا في سورة إبراهيم لما قال ربنا ﷻ عن المشركين

{فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ}[إبراهيم ٩]، الهاء في أيديهم وأفواههم، على من تعود؟ إذا قلنا "ردوا أيديهم" أي أيدي المشركين، "في أفواههم" أي في أفواه الرسل، فمعناها أنهم وضعوا أيديهم على أفواه الرسل كي يمنعوهم من الكلام.

أما إذا كانت "أيديهم" أي أيدي المشركين في أفواه أنفسهم فمعناها أنه يشير لهم –أي الرسل– أن يصمتوا أو كأنهم يضحكون ويمثلون أنهم يكتمون ضحكهم كنوع من السخرية، فاختلاف ما تعود عليه الضمائر يؤدي لاختلاف معنى الآية.

علام تعود الضمائر في هذه الآيه؟

فهنا {وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ}[سبأ ٤٥].

"**بَلَغُوا**" على ماذا تعود الواو في بلغوا؟ "مِعْشَارَ مَا **آتَيْنَاهُمْ**" الخلاف في ما تعود عليه [الواو] في بلغوا، و[هُم] في آتيناهم، وفسرها العلماء على ثلاثة أقوال، سنكتفي بذكر اثنين منهم:

القول الأول: وما بلغ كفار قريش عشر القوة المادية التي آتاها الله للأمم السابقة، فتكون [الواو] عائدة على كفار قريش و[هُم] عائدة على الأمم السابقة، فمعنى الآية: وكذب الذين من قبل كفار قريش، كذب المشركون من قبل كفار قريش، وما بلغ كفار قريش عشر ما بلغه هؤلاء –الكفار من قبلهم– من القوة المادية من قوم عاد، وبالرغم من أنهم كانوا أقوى منكم، ولكن أهلكهم الله فإذًا سوف يهلككم.

فمثلاً عندما يأتي شخص ويتكبر فتقول له أن الله قد أعطى من قبلك قوة أعظم منك فكذَّب فأهلكه الله. فيكون معنى الآية أنه من باب أولى مثل قول الله ﷻ {وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}[الروم ٢٧] –سبحانه وتعالى– أنه هو الذي أهلك الأقوى منك، لذا فهو قادر على أن يهلكك. فمعنى الآية أن ربنا يقول لهم كذب الذين من قبلكم يا كفار قريش ولقد آتيتهم من القوة المادية وقوة الأجساد وينحتون في الجبال بيوتًا أكثر منكم، فلما كذبوا أهلكتهم فأنا قادر على إهلاككم، فتدبروا ذلك.

القول الثاني: {وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ}[سبأ ٤٥] أي أن الله أعطى الأمم السابقة عشر ما أعطى قريشًا من الوضوح في الوحي والآيات البينات، فتكون [الواو] عائدة على الأمم السابقة و[هُم] عائدة على كفار قريش، فيقول الله لهم: أنا أعطيتكم يا كفار قريش من الآيات المعجزات البينات أكثر من أي أمة سابقة.

قوة القرآن الكريم:

فالقرآن أعظم من أي آية سابقة وأعظم من عصا موسى وأعظم من إحياء عيسى للموتى، القرآن بالنسبة لكم -يا عرب- كان يجب أن يؤثر فيكم تأثيرًا أعظم من أي أمة لأنه أعظم من أي آية.

فقال النبي ﷺ (ما من نبي من الأنبياء إلا أوتي من الآيات ما على مثله آمن البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أنا أكثرهم تابعًا يوم القيامة)[1] فالنبي ﷺ يقول في هذا الحديث أن الوحي أعظم من كل الآيات لذلك سأكون الأكثر أتباعًا؛ لأنه أكثر تأثيرًا.

هل سختلف الجاء يوم القيامة ؟ نعم، حسب وضوح الآيات والمعجزات، والقرآن هو أعظم آيه.

{فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ}[سبأ ٤٥] فمعنى الآية على المعنى الثاني: إذا كان الذين كذبوا بعشر الآيات أهلكتهم، فما بال الذي يكذب بهذه الآيات كلها؟! فما بال الذي يكذب بالقرآن؟! ماذا سأفعل به؟!

قال: أعذبه عذاباً شديدًا! لأنه كلما تزداد الآيات وضوحًا، كلما يزداد العذاب، فخذ حذرك.

ابن عمرو بن العاص -كما روى الإمام ابن جرير- يقول: (أشد الناس عذاباً ثلاثة: فرعون، وأصحاب المائدة، والمنافقون الذين صلوا خلف النبي ﷺ)[2].

يقول من أشد الناس عذاباً؟ هم ثلاثة، لماذا فرعون؟ يقول تعالى {وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا} رآها كلها {فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ}[طه ٥٦].

وأصحاب المائدة -على قول أنها نزلت- لأنها نزلت، وربنا قال لهم: خذوا حذركم أنني إذا أنزلتها وكفرتم، أعذبكم عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، قالوا: حسناً، وأكلوا منها ثم كفروا بعد ذلك.

والثالث الذي صلى خلف النبي ﷺ، منافق رأى من الآيات وصلى لكنه كان منافقًا.

---

[1] ما من نبيٍّ من الأنبياءِ إلّا وقد أوتيَ من الآياتِ ما آمنَ على مثلِهِ البشرُ، وإنَّما كان الَّذي أوتيتُهُ وحيًا أوحاهُ اللهُ إليَّ، فأرجو أنْ أكونَ أكثرَهم تابعًا يومَ القيامةِ
ابن تيمية (ت ٧٢٨)، الجواب الصحيح ٣٨٠/٦ • صحيح

[2] [عن أبي المغيرة:] عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو قالَ: إنَّ أشدَّ النَّاسِ عذابًا يومَ القيامةِ ثلاثةٌ: المُنافقونَ، ومَن كفرَ مِن أصحابِ المائدةِ، وآلُ فرعونَ
أحمد شاكر (ت ١٣٧٧)، عمدة التفسير ٧٥٦/١ • إسناده صحيح

فكثرة وضوح الآيات، إذا كان معها إعراض، يزداد معها العذاب. وهكذا كلما أصبحت الآيات أكثر وضوحًا ويصاحبها إعراضًا، كلما يزداد العذاب والعياذ بالله.

{وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبلِهِم وَمَا بَلَغُوا مِعشَارَ مَآ ءَاتَينَٰهُم فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيفَ كَانَ نَكِيرِ}[سبأ ٤٥]

انتبه يوجد ياء محذوفة لذلك الراء مكسورة لتدل على الياء المحذوفة، أي: فكيف كان نكيري، فمعنى الآية: يقول الله ﷻ انظروا كيف كان إنكاري عليهم.

فأنت عندما تنكر منكرًا، أقصى شيء بإمكانك فعله هو أن تتكلم، أن تصرخ، لكن الله ﷻ عندما ينكره، **يخسف بهم الأرض**، فكيف كان إنكاري عليهم ذلك!.

الإنصاف في المناظرة:

وصلنا لختام السورة، وبعد المناظرة طوال السورة، وأيضًا من الملامح التي فيها مناظرة في السورة: قمة الإنصاف، كما قلنا أن هذا من التنزل مع الخصم، كما جاءت في هذه السورة {وَإِنَّآ أَو إِيَّاكُم لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ}[سبأ ٢٤].

جاء في هذه السورة أيضًا: أنا فقط أريد أن أطلب منك طلبًا واحدًا {أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ}[سبأ ٤٦].

وجاء في السورة {قُل إِن ضَلَلتُ}، {وَإِنِ ٱهتَدَيتُ} إذا هذا أو إذا ذاك، التنزل مع الخصم، لأنه في فترة البهرجة المادية يحتاج لسماع خطاب ينتشله حتى يُقبل ويسمع الوحي.

ختام آيات السورة:

الختام {قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ}[سبأ ٤٦] –ختام الآيات– يقول النبي ﷺ لهم: انظروا –بعد الشوط الطويل من أول {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ}[سبأ ١]، والكلام عن قدرة الله، والملك، والعلم، وسيدنا داوود، وسيدنا سليمان، وقصة سبأ، والدار الآخرة، وحوار المستضعفين والمستكبرين، وبيان أن الأموال والأولاد رزق من عند الله ابتلاءً لا علامة حب... بعد كل هذا– سأطلب منكم طلبًا واحدًا فقط.

ولم يقل: أطلب منكم، ماذا قال؟ قال: أعظكم {قُل إِنَّمَآ أَعِظُكُم}[سبأ ٤٦] يمارس النبي ﷺ وظيفة الداعية أنه يعظهم، يقول له: أنا خوفي عليك يجعلني أعظك قبل أن أذهب.

كان من الممكن أن يقول أن الأمر قد انتهى، والسورة تُختم على ذلك {وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبلِهِم وَمَا بَلَغُوا مِعشَارَ مَآ ءَاتَينَٰهُم فَكَذَّبُوا رُسُلِى ۖ فَكَيفَ كَانَ نَكِيرِ}[سبأ ٤٥].. انتهت السورة، ستموتون، سأذهب وأترككم.

ولكنه قال في النهاية: **سأعظكم**، سأقول لكم شيئًا واحدًا فقط قبل أن أذهب {أَعِظُكُم}[سبأ ٤٦].

وهذا شيء مهم جدًا، في الحوار عندما ينتهي مع من أمامك، أن تترك له شيئًا يضغط عليه دائمًا قبل أن تذهب، عندما تتكلم مع أحد، اترك له شيئًا يؤرقه نفسيًا كي يفكر.

بمعنى: حينما تتكلم مع أحد قل له: انظر، قبل أن أنهي معك الحوار سأقول لك كلمة واحدة فقط كذا وكذا وكذا، وتقول له وراء بعض قل.. قل.. قل.. حوالي خمسة متتاليات هكذا، قل.. قل.. قل.. ثم تذهب وتنهي معه الحوار، بحيث تتركه يتفكر في الكلام الذي تقوله.

بم أنهي النبي ﷺ المناظرة بينه وبينهم في هذه السورة؟

فالنبي ﷺ يقول لهم: {أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ}[سبأ ٤٦] فما هي هذه الواحدة ؟ ما هو الطلب الواحد؟ هذه النصيحة مكونة من أجزاء:

- الجزء الأول: {أَن تَقُومُوا}[سبأ ٤٦] بمعنى أنك تنهض للبحث.

وهنا مثلما نقول الجو العام في السورة فيه مستضعفين مخدوعين، فهذا الجو مناسب جدًا في الخطاب عندما يكون هناك تشويه إعلامي كبير وأناس كثر مخدوعين، فأنت تقول للناس أنا سأطلب منكم طلبًا واحدًا فقط.

رقم واحد، أن تقوموا؛ ما معنى تقوموا؟ **أن تبحث أنت بنفسك**، لا تسمع، بل تبحث بنفسك، ستتعب، بمعنى يأتي أحد مثلًا يقول: أنا لم أعد أصدق أي أحد، أنا أسمع فتاوى: النقاب بدعة والنقاب واجب، الأغاني بدعة والأغاني حلال، الربا.. الفوايد مستحبة وواحد يقول حرام، أنا لم أعد أثق في أي شيء في الدنيا. تقول له: طالما وصلت لهذه المرحلة، فيجب أن تتعب، يجب أن تبحث، هذه دار آخرة، هذا جنة ونار، يجب أن تقوم.

فرقم واحد: يجب أن تأخذ قرار أن تقوم من هذا التشويش الذي تعيش فيه.

● ثانيًا: أن يكون هذا القيام **لوجه الله** لا لإرضاء أحد.

لست قائمًا لتبحث عن مصلحتك! لست قائمًا لترى ما الذي يجلب مالًا أكثر، لست ذاهبًا وراء من يقول لك أنه سيسعدك، لست قائمًا لترضي المجتمع، لست قائمًا وأنت خائف أن تفعل شيئًا يخالف المجتمع.

لا، بل{أَن تَقُومُوا لِلَّهِ}[سبأ ٤٦] أي لأجل إرضاء الله.

فرقم واحد: أنك تقوم تتحرك تبحث.

رقم اثنين: أن تقوم هذه القومة لله.

ورقم ثلاثة هو شرط في صحة القومة التي ستوصلك للحق، وكأن أي إنسان سيفعله سيصل إلى الحق، أي إنسان سيقوم ويرى الله ﷻ منه هذه القومة، لسان حاله: يارب أنا قمت أبحث عن دين الحق، مثل سلمان الفارسي عندما قام من بلده وتركها قال: أنا سأبحث عن الحق، ذهب لنصارى.. واحد ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابع.. أربع قساوسة وكل واحد يرسله للثاني والثالث... ذهب لأربعة بلدان؛ ذهب إلى العراق، وفلسطين، وتركيا، والشام ثم نزل للمدينة، لف حتى يصل إلى الحق، قام، هذه القومة كانت لله.

● رقم ثلاثة: {مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ}[سبأ ٤٦] لا تقوموا تفكروا مع بعضكم، إما أن تكونوا اثنين اثنين، أو كل واحد لوحده. لماذا؟

دائمًا توجد حملات التشويه الإعلامي، مثلًا عندما تتكلم أمام الناس من الممكن أن يكون واحدًا فقط هو من يخرب الكلمة، يقول: ما هذا الكلام... وتجد لغط ...وآخر يقول: أنت اسكت، وتجد لغط وجلبة والموضوع يفشل.

فدرس واحد يمكن أن يخربه شخص واحد فقط؛ يصرخ ولا تسمع ماذا يقول والثاني يرد عليه... وهكذا خرب الموضوع، إذًا ما هو الجو الذي يريده؟ جو هادئ للوصول إلى الحق.

نحن الآن نريد أن نصل إلى الحق لا أن نتشاجر.

والنقطة الثانية لماذا {مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ}[سبأ ٤٦]؟ يوجد شيء اسمه الضغط المجتمعي، أنت خائف أن تفكر خارج دائرة المجتمع؛ بمعنى مثلًا سأعطيكم مثالًا بعيدًا عن الموضوع.

قضية التعليم المنزلي فيها أبحاث كثيرة وأنها أنتجت علماء، وأغنياء غنى كبير في العالم، وشركات كثيرة عالمية أصحابها تعلموا تعليمًا منزليًا ليس تعليمًا أكاديميًا، فتخيل إذا أردت أنت أن تطرح هذه الفكرة،

فتقول: ما رأيكم إذا اختار المرء أن يعلم أولاده في المنزل، دون الذهاب إلى مدارس؟ من الممكن فور طرحك للفكرة أن تسمع من ينادي: ماذا تقول؟ أنت مجنون؟ أنت...

أو حتى الذي يتلقى وهو جالس وسط ناس ولم يجد من تجاوب، فيقول لك: لا، سأكون أنا الذي اختلف عن البقية، لا، لن أكون أنا الذي استجبت.

فتخيل النبي ﷺ يقوم يكلمهم وهم واقفين ينظرون لبعضهم البعض: هل سيوافق أحد؟ إذا وجدوا أنه لم يوافقه أحد، يقول الواحد منهم: لا سأكون مع الناس.

وهكذا يوجد ضغط مجتمعي... هذا الذي يسموه العقل الجمعي، أنك تَربى داخلك معلومات غصبًا عنك، مجموع الناس لديه هذه المعلومات ولا يستطيع أن يخالفها غصبًا عنه.

مخالفة العقل الجمعي تحتاج عزيمة وإرادة، لدرجة أن يكون واحد في الجاهلية يحب ابنته، ويدفنها حتى يوافق المجتمع.

وتكلمنا في هذا بالتفصيل في تفسير سورة الأنعام، كيف أن السفاهة من الممكن أن تصل بشخص أن يدفن ابنته حية حتى يُرضي المجتمع! كيف يمكن لإنسان أن يدفن ابنته حية حتى لا يكون شكله سيء أمام الناس!

طريقة التفكير هذه حتى تتخلص منها يجب أن تجلس وحدك وتبتعد بعيدًا عن المؤثرات.

وإذا أردت أن تكلم شابًا عن الالتزام، تأخذ شابًا مثلاً من وسط مجموعة أصدقائه والخروجات ...، فعندما تكلمه وحده تجده يستجيب، وعندما تكلمه وسط مجموعة أصدقائه، تجده يصنع جلبة ولا يريد أن يسمع.

هو ذاته عندما تقابله وحده وتأخذه لتصلوا سويًا وتعتكفوا يكون شخصًا آخر، مختلفًا تمامًا، تغير.

فالفصل للضغط المجتمعي، أن تفصله عنه مهم، أن تقول له: فكر وحدك بمفردك، أو أوجد أحدًا يحبك صادقًا، وأنت تحبه، اثنين عقلاء يجلسان سويًا ويفكران.

ألسنا نسمي النبي ﷺ طوال عمرنا الصادق الأمين؟ ألسنا طوال عمرنا نخاف عليه؟ ألسنا الآن مع أننا ذاهبون لقتله قد تركنا الأمانات عنده؟ يا رجل يا عاقل أنثق في حفظ الأمانات ولا نثق في الوحي الذي يأتي به من السماء؟ هو لو أعطى نفسه فرصة يفكر يفوق، ولذلك الوليد بن المغيرة عندما سمع القرآن بمفرده تأثر، عندما رجع لهم، قالوا له: أجننت أنت أم ماذا؟ قال لهم: لا، لا أنا عاقل، -هذا كان فقط مَلَكًا مارًا وتبت إلى الشيطان-.

ما فائدة أن تبعد الشخص عن الضغط المجتمعي قبل أن تدعوه ؟

هو عندما يبعد عن الضغط يفوق، كثير من الناس هكذا، وهذا الموضوع -للعلم- خطير. كثير منا، دعونا نُسقِط على واقعنا نحن كملتزمين مثلًا هو يعيش في وسط معين، وسط سلفي مثلًا، هذا الوسط يفضل عِلم معين، تجده حريص على تلقي هذا العلم، لماذا؟ حتى لا يحس بنوع من الدونية وهو يعيش في هذا المجتمع، الاهتمام بالنظرة العامة للناس.

لقد قرأت قصة عجيبة جدًا، أحد الخلفاء العثمانيين كان دائمًا من كثر اهتمامه بالجهاد كان رث الثياب، لا يهتم بملبسه، أشعث أغبر، ودائمًا الوزراء يحاولون معه، يتكلمون معه بأن يهتم بملابسه ولكن بلا فائدة، لا يهتم بالظواهر، فجاء وزير من دولة أوروبية أو سفير من دولة أوروبية يزورهم، فالوزراء تجمعوا على الملك وترجوه ولأجلنا ولأن الرجل جاء من أوروبا ونريدك فقط أن ترتدي ثوبًا نظيفًا، قال لهم: حسنًا، ارتدوا شيئًا نظيفًا، جميعكم ارتدوا شيئًا نظيفًا، وأنا أيضًا سأفعل ذلك.

وفي يوم الزيارة، جاؤوا جميعهم يلبسون ملابسًا جديدة وحللًا نظيفة وبدلًا، ماعدا هو كما هو فاستغربوا جدًا، ماذا فعل هذا الرجل قبل دخول الوزير الأوروبي؟ أخرج سيفًا ضخمًا جدًا ووضعه بالقرب من كرسيه معلقًا، وجلس يتكلم مع الوزير...، فجاء الناس يعاتبون الملك، ألم تقل لنا وكان شكلنا غير لائق أننا جميعًا نلبس جديدًا وأنت لا، قال لهم: اذهبوا واسألوه ماذا كان يلبس الملك؟ فذهبوا، قالوا له: ماذا كان يلبس الملك؟ فقال لهم: والله ما أدري، ظلت عيني على هذا السيف طوال الجلسة، طوال جلسته علام كان يركز؟ على السيف، هو جالس غير منتبه من الملابس.

فأحيانًا توجد أشياء مؤثرة تأثيرًا حقيقيًا في الإنسان ليست المظاهر التي تؤثر، فكذلك في هذا الموضوع الذي أنا أتكلم فيه، يكون أحيانًا الإنسان لا يسمع ما تقوله، تكلم شابًا مثلًا وسط مجموعة من الشباب، الصلاة والالتزام وهو لا يسمعك ويعيش مع عالم الخروجات وأصحابه وهذا وذاك، تنتزعه من

هذا وتقول له: {إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ}[سبأ ٤٦] أن تقوم، يجب أن تتغير، تبحث عن التغيير، القومة هذه لله، صفات هذه القومة مثنى وفرادى، تخلص من الضغط المجتمعي الذي عليك.

مثلما أقول: كثير منا يطلب عِلمًا معينًا ليس هذا المطلوب منه، لكنه حتى لا يشعر بالدونية أمام الناس وأمام المجتمع الذي هو فيه، أشياء مهمة بالنسبة له لا يطلبها، بل يفعل ما يمليه عليه مجتمعه.

إذا القرآن يعملك في الدعوة، استخصله من البيئة الفاسدة وخاطبه بما يستثير فطرته ثم أتركه يتفكر.

نحن قلنا {مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ}[سبأ ٤٦]، بعد أن يأخذ هذه الخطوات الثلاثة، يرجع يجلس مع نفسه، مرة ثانية –على قول بعض المفسرين– {ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا}[سبأ ٤٦] تجلس وتفكر.

فجأة كان يعيش بيننا شخص اسمه الصادق الأمين، وله مكانة، يعيش تاجرًا وسعيدًا، ومن عِلية القوم ومع قومه قريش، وشرف النسب، وسعيد، فجأة قال: أنا يأتيني وحي، وقال: أنا {نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ}[سبأ ٤٦]، تعرض للأذى وتعرض لمحاولات للقتل والتعذيب و...و...و، ولم يأخذ مالًا ولم يطلبه، لماذا يفعل ذلك؟ بمعنى يقول له: أعطي لنفسك فرصة وفكر لماذا يفعل ذلك؟ شيء من الاثنين: إمّا صاحب غرض مادي من وراء هذا الذي يفعله، أو مجنونًا.

فالذي يفعل كل ذلك أيكون مجنونًا؟ فربنا نفى عن النبي ﷺ هاتين التهمتين: تهمة الجنون، وتهمة أن يكون له غرض مادي.

لذلك قال لهم {ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ}[سبأ ٤٦]، {قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[سبأ ٤٧] وبعد ذلك {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ}[سبأ ٤٨]، بمعنى أن شخصًا ترك كل ذلك لنصرة دين، ويقول أنه يأتيه وحي، ومعه وحي يثبت ذلك، ومعه كتاب، ويتلو عليكم الكتاب، وتحداكم ولم تأتوا بسورة من مثله، ويتعرض للعذاب ويتعرض للأذى، ويترك بلده وأنتم تعرفون أنه ليس بمجنون ولهذا ماذا قال؟ {مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ}[سبأ ٤٦].

لقد صاحبتموه كثيرًا، طالما صحبتموه، أنتم تعلمون جيدًا أنه ليس بمجنون، بل كنتم تحتكمون إليه عند الخلاف كما حصل في حادثة الحجر الأسود، وتثقون في عقله وفي رأيه وفي أمانته، {مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ}[سبأ ٤٦]

مهم جدًا في ختام المناظرات أن **تختمها بالتخويف**، مهم جدًا في ختام المناظرات مع المعرضين أن تختم كلامك بالتخويف {إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ}[سبأ ٤٦].

"قل" الثانية: {قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ}[سبأ ٤٧] معنى الآية إمّا:

- أنا لم أطلب منكم مالًا، وإن كنت طلبت مالًا فهي إما زكاة أو صدقة يعود نفعها عليكم، أو افترض أني قد طلبت منك شيئًا، فلتأخذ مرة ثانية فأنا لا أريده، فلقد تنازلت عنه، كنوع من التنازل في الخطاب.
- أو {مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ}[سبأ ٤٧] أي: فالقرآن يعود لكم ولا يعود نفعه عليّ، بل يعود نفعه لكم، أمّا أنا فنفعي {إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ}[سبأ ٤٧]، أنا أنتظر أجري من الله، لا أنتظر أجري منكم {إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[سبأ ٤٧].

ماذا تعني خاتمة الآية {وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[سبأ ٤٧]؟ أي أن الله ﷻ يعلم ما أقول، ويشهد على ما أقول، وإذا أراد أن يفضحني فضحني.

شهادة الله لرسوله ﷺ بنصرته، شهادة الله لرسوله ﷺ بنصرة دينه، شهادة الله ﷻ لرسوله ﷺ برفعة ذكره، شهادة الله ﷻ لرسوله ﷺ أن يحفظه إلى أن يتم الدعوة، فقالوا هذه من معاني إن الله يشهد لرسوله ﷺ ويشهد عليه {وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[سبأ ٤٧].

قوة الخاتمة أتت من أسلوب التخويف وبداية الآيات بتوجيه من الله "قل"

[قل] الآية الثالثة –قلنا إنهم خمس آيات متتاليات فيهم [قل]:

"قل" الثالثة: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}[سبأ ٤٨] هنا معنى الحق، قال كثير من العلماء منهم الإمام ابن جرير الطبري وغيره– أي: الوحي، أي أن الله ﷻ يهدم الباطل بماذا؟ بالوحي.

بمعنى، نحن دائمًا نقول إن هناك معركتان مع الباطل، المعركة الأولى هي: معركة العقائد، المعركة الثانية هي: معركة التطبيق، الإسلام لا يُهزم أبدًا في المعركة الأولى، أي مناظرة عقدية فكرية لا بد أن ينتصر فيها الإسلام إلا إذا كان المناظر ضعيفًا، أمّا التطبيق فالحرب بيننا وبينهم سجال إلى يوم القيامة، فهنا {إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ}[سبأ ٤٨] الله ﷻ أوحى إلى النبي ﷺ القرآن، وأمرنا أن نتعلّم القرآن، فنحن نجاهد بالقرآن.

يقول الله ﷻ: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ}[سبأ ٤٨]، قال كثير من أهل العلم أن الحق هنا هو الوحي، وأن الله ﷻ جعل أول قذيفة للحق يهدم بها المسلمون الباطل أن يبقى معهم وحي، فبدون وحي لن يستطيع المسلمون أن يهزموا أهل الباطل حتى لو معهم قوة مادية.

فإذًا الاهتمام بالقذيفة الأولى هي قذيفة الوحي، وأن الجهاد بالوحي هو الجهاد المثمر، بمعنى، أي قذيفة من المسلمين على أهل الباطل -أي صراع عقدي بين المسلمين وبين أهل الباطل- إذا غاب عنه الوحي؛ هذا الصراع لن ينتصر فيه المسلمون، ولو انتصر فيه المسلمون لن ينتصروا انتصارًا حقيقيًا.

يقول الله ﷻ {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ}[الأنبياء ١٨]، يكسر رأسه، فالشيء الذي يقذف في الدماغ يقتله، فلما كانت القذيفة قذيفة حق جاءت في الدماغ فقتلته، وعندما تكون القذيفة ليست بالوحي، عندما يكون الصراع العقدي بين المسلمين وبين أهل الباطل يُنزع منه عقائد ومبادئ الوحي؛ يكون تأثير المسلمين ضعيفًا، لا يكون قويًا، لذلك تجد المناظرات أو النقاشات أو الأطروحات من العاملين لدين الله ﷻ عندما يغيب عنها القرآن تكون ضعيفة، وتأثيرها ضعيف، لا تكون قاصمة.

طريقة القرآن تجعل من أمامك إمّا أن يخضع ويستسلم ويؤمن، وإمّا أن يجحد، لا أن يكفر، بل يجحد، يعلم أن هذا هو الحق ثم يقول لا طاقة لي به أنا سأكفر، يعلم أن هذا هو الحق ثم يقول لا طاقة لي به، سأكفر.

قوة تأثير القرآن، حتى على المشركين.

مثل الوليد بن المغيرة، يسمع القرآن ويقول: "إن عليه لحلاوة، وأعلاه لمثمر، وأسفله لمغدق...إلخ[٣]"، ثم يكفر، فيهلك عن بينة، كما قال الله ﷻ عن المشركين {فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ}[التوبة ٦]، بحيث أنه إذا مات، يموت على بينة.

الوحي حق واضح ثابت وليس تراث شعبي متداول:

[٣] [عن عبدالله بن عباس:] أَنَّ خالِدَ بنَ عُقبةَ جاء رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّم وقال: اقرَأْ عليَّ القرآنَ فقرأ عليه إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ والْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى [النحل: ٩٠] الآيةَ ، فقال له: أعِدْ فأعاد ، فقال: واللهِ إنَّ له لحلاوةً ، وإنَّ عليه لطلاوةً ، وإنَّ أسفلَه لَمُورِقٌ ، وإنَّ أعلاه لَمُثْمِرٌ وما يقولُ هذا بشَرٌ.
العراقي (ت ٨٠٦)، تخريج الإحياء ٣٦٤/١ • إسناده جيد إلا أنه قال : الوليد بن المغيرة بدل خالد بن عقبة وكذا ذكره ابن إسحق في السيرة بنحوه

فهنا {إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ}[سبأ ٤٨]، سمى الوحي قذيفة لأنّه لا يجوز أن ينزع منا الوحي في الصراع بين الحق والباطل، فتلك القذيفة تكون في الصراع.

إذًا لا يجوز أن يطرح القرآن على أنّه مجرد لطائف، أو على أنّه مجرد بلاغيات، أو على أنه لطائف أخلاقية بسيطة، بل هناك قضية أساسية من أول خلق آدم، وهي: الصراع بين الحق والباطل؛ جعل إبليس يطيف بآدم عليه السلام ويدرس كيف سيأخذ أبناء آدم معه إلى نار جهنم.

إذًا فنزع قضية الصراع بين الحق والباطل، وطرح الدين على أنّه مجرد تراث شعبي، أو تقاليد عامة، تلك مصيبة! فالدين هو صراع بين الحق والباطل {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ}[سبأ ٤٨]. وعندما تستخدم الوحي في الصراع؛ فأنت محفوظ من الله.

{إِنَّ رَبِّي}[سبأ ٤٨] قالوا هنا أن علاقة الربوبية علاقة خاصّة، ليست ربوبية عامّة، بل ربوبية العناية والاهتمام؛ لأنّك **تجاهد بالقرآن**.

الفارق بين قذيفة الحق وقذيفة الباطل:

{قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}[سبأ ٤٨]، ربي الذي يقذف بالحق وُصِف هنا ب {عَلَّامُ الْغُيُوبِ}[سبأ ٤٨]، ولم يأتِ مثلًا وصف العزيز أو الحكيم أو القهار أو الجبار، لماذا؟

أولًا: نجد في ختام السورة عن الكفار {وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ}[سبأ ٥٣]، هذا هو الفارق بين قذائف الحق الحقيقية وبين قذائف الباطل، **فقذائف الحق من الله ليست من المسلمين أنفسهم** إنما أصلها من الله ﷻ {إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ}[سبأ ٤٨]، والكفار هم من {يَقْذِفُونَ}[سبأ ٥٣] الباطل، لأنهم ليس لديهم إله لأنه "لا إله إلا الله".

ثانيًا: لنقارن بين {إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}[سبأ ٤٨]، وبين {وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ}[سبأ ٥٣]:

{إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}[سبأ ٤٨]: هنا قلنا الفاعل ربي.

{وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ}[سبأ ٥٣]: هنا (الكفار) هم الفاعل.

{إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}[سبأ ٤٨]: هنا يقذف الله بالحق.

{وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ}[سبأ ٥٣]: هنا لا يوجد حق؛ لأنهم ليس لديهم وحيًا.

لذلك يقول الله ﷻ : {وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا}[سبأ ٤٤]، فأنت معك وحي بينما ليس لديهم وحي.

الفارق الثالث: يقذف أهل الباطل قذائفهم بأن يأتوا مثلًا فيقولون بأن لديهم تصورًا كاملًا للحياة، أو أن لديهم رؤية اقتصادية عامة للحياة، أو أن لديهم تصور عن الدولة –التصورات العامة للحياة، هذه هي قذائف الباطل.

أن يكون هناك مثلًا مذهبًا كمذهب الاشتراكية أو الرأسمالية أو الليبرالية أو العلمانية، تلك تصورات من تصورات أهل الباطل، وهذه هي قذائف أهل الباطل، يريد أن يضع تصورًا كامًلا لهذه الحياة،بينما الإسلام ينازع تلك التصورات الكلية، قد يتفق معهم في بعض التفاصيل الجزئية، أمّا التصورات الكلية، فالإسلام وحده يملكها وينازع فيها.

لذلك عندما كان يقول بعض من الصحابة: "نحن قوم –يتحدثون عن تصورات كلية– ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة" مما يبين أن لديهم تصورًا عامًا عن الحياة.

قذائف أهل الباطل أشبه بشخصٍ مغمض عينيه [بالغيب] ثم يرمي رميته إلى مكان بعيد جدًا، فهو يريد أن يسدد الهدف في شيء بعيد عن هدفه وهو مغمض عينيه، فبالطبع لا يصيب الهدف.

أمّا قذائف الحق، فالله ﷻ (علام الغيوب)، أي أنّه يعلم أين ستسقط هذه القذيفة، بمعنى أن الله ﷻ عندما ينزل الوحي يخبرك أن هذا الوحي سيستمر إلى يوم القيامة، فيتساءل أحدهم كيف ذلك؟ فتقول له: لأن الله علام الغيوب، فعندما يُنزِل الله الوحي ويقول أن هذا الوحي سينشر به المستضعفون في الأرض الدين في العالم، ويتساءل البعض: كيف؟ فتقول: لأنّ الله علام الغيوب، هو يعلم المستقبل – وهو يعتبر ماضيًا بالنسبة لله–هو يعلم ذلك ﷻ.

{سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ}[الرعد ١٠]، الأمور عند الله مختلفة –سبحانه وتعالى–، لا تقس الله على البشر–سبحانه وتعالى– {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}[الشورى ١١].

إذًا ف{يَقْذِفُ بِالْحَقِّ}[سبأ ٤٨] تعني أنّك معك وحي الذي تكلم به من يعلم الغيب، من يعلم المستقبل؛ فلا تخف، ولا تتساءل ماذا بعد؟ أو ماذا إذا طبّقنا النظرية الاقتصادية الخاصة بالإسلام، وماذا إذا فعلنا كذا وكذا في الشريعة، يا ترى ماذا سيحدث مستقبلًا؟ فمن نزّل الوحي يعلم ماذا سيحدث مستقبلًا.

إنما أهل الباطل لا يعلمون، لذلك أهل الباطل يجربون؛ فتظهر الاشتراكية والشيوعية والرأسمالية، ثم يستنتجون بعد تجارب لعقود كثيرة أنهم كانوا على خطأ، بعدما مات الناس، وأخطأوا وأفلسوا، وحدثت مشاكل وكوارث لا حصر لها.

معرفتك بأنك تعبد علام الغيوب ستجعل يقينك يزداد :

هل يجب عليك أن تظل تُجرّب خلف أهل الباطل للنهاية؟ قذائف الحق التي معك قذفها (**علّام**)، ليس عالم، بل (**علّام الغيوب**) يعني يعلم مصير من سيطبق كل آية ونتائج تطبيقيها في الواقع، يعلم الله نتيجة كل آية لو طبقناها بالإضافة إلى مستقبلها وإلى ما ستصير بنا، ويعلم نتيجة كل آية سنتركها ويعلم مدى الضلال الذي سنصل إليه، كل ذلك يعلمه الله ﷻ؛ فلو تعاملنا مع الوحي بهذه الطريقة؛ سنمتلك رؤية مستقبلية، كل ذلك بسبب القذيفة التي معك {إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}[سبأ ٤٨].

حسنا، متي سنتهي الباطل إذا؟

{قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ}[سبأ ٤٩]، الباطل لا يذهب إلا عندما يأتي الحق، الباطل لا يرحل ويقول للحق تفضل، فالباطل لن يذهب إلا كرهًا، ولن يذهب إلا عندما يأتي أهل الحق، إذًا طريقة تفكير بني إسرائيل {فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ}[المائدة ٢٢] طريقة خاطئة، بل ستدخل أنت أولًا وهو يرحل.

نحن نريد أهل الباطل أن يرحلوا ويقولوا تفضلوا حتى نأتي، لا ليس ذلك ما يجب أن يحدث بل {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ}[الإسراء ٨١] متى زهق الباطل؟ زهق الباطل عندما جاء الحق {إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} أي: كان زهوقًا عند مجيء الحق، ليس زهوقًا بمفرده.

هنا {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ}[سبأ ٤٩] وبعد أن جاء الحق أين ذهب الباطل؟ ماذا سيفعل الباطل؟ {وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ}[سبأ ٤٩]، لن يفعل أي شيء.

قيل {وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ}[سبأ ٤٩] ما معناها؟

القول الأول: أنه لا يقدم ولا يؤخر، **إذا جاء الحق، لن يقدر الباطل على التصرّف أمامه في أي شيء**؛ لأنه {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ}[الأنبياء ١٨]، سيصاب في دماغه ولن يكون الباطل قادرًا على المقاومة فيموت ويندثر.

القول الثاني: وقيل {وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ}[سبأ ٤٩] معناها كيف لا تتبعون الله، والله ﷻ هو الذي يخلق، بينما أهل الباطل لا يخلقون شيئًا، وإذا مات شيء فهم غير قادرين على إحياءه مرة أخرى! فمعنى {وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ}[سبأ ٤٩] أي لا يخلق خلقًا ابتداء، ولا يعيد الخلق. هذا هو القول الثاني.

القول الثالث: أن الحق "أي الوحي" يستطيع أن يقيم أمّة، وإذا سقطت الأمة لو تمسّك أهل الحق مرة ثانية بالحق؛ أقامهم الحق مرة أخرى.

بمعنى أن أي أمة من الأمم بحاجة إلى الوحي حتى تنهض، ولن تكون هناك نهضة لأي أمة من الأمم إلا بالوحي، ولو ابتعدت أمة عن الوحي وسقطت؛ فالوحي قادرٌ أن يعيدها مرة أخرى؛ لذلك عندما سقطت الأمة الإسلامية كان الحل أن تتمسك بالوحي لكي تنهض؛ إذًا فماذا تقول هنا على الحق؟ أن الحق يبدئ ويعيد، يبدئ أي إقامة دولة وإذا سقطت يعيدها.

فما معنى {وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ}[سبأ ٤٩]؟ أي أن الباطل ليس قادرًا على أن ينهض بأمة – وليس دولة–، وإذا سقطت فإنها لو تمسكت بالباطل فإن أهل الباطل أي مذهب يهلك ويفشل يلقونه ويتخلصون منه، الاشتراكية مثلًا عندما ثبتت فشلها، ألقى بها.

إذًا فالوحي يجب أن يقِيم الأمم، ولكن كيف يكون أن الدول الكافرة التي لا تتبع الوحي مسيطرة وقائمة؟

هذا لسببين:

- السبب الأول –ودائمًا شيخ الإسلام ابن تيمية يكثر من ذكره في كتبه–: أن كل نهضة موجودة، وكل خير موجود هو من بقايا وحي، **هو من بقايا دين**. حتى لو لم ينسبوه إلى الدين، فالموجود في الحضارة الغربية الآن هو بقايا دين من رفع الظلم، والقيام في وجه الظالم، وأنّهم يتناصحون... إلخ.

كل ذلك يسمّيه شيخ الإسلام "**بقايا النبوّة**، أو "**بقايا الوحي**"، حتى عند الشرق عندهم بقايا الوحي، وبقايا النبوة موجودة عندهم، إذًا فكل خير في الأرض هو من الوحي أو من بقاياه، وهذا من أكثر المعاني التي تكلم فيها شيخ الإسلام ابن تيمية.

- السبب المعنى الثاني: أنّك عندما تخلّيت أصبح مظهره مرتفع، لكن الحقيقة أن الدَرَجة التي يقف عليها ليست مرتفعة، لكن **أنت من هبطت تحته**، والدليل على ذلك أنّ عندهم من الفساد الأخلاقي ما تضيق به صفحات الكتب، فهو ليس عاليًا، لكن أنت من هبطت، فهو مثلًا يقف في الدَرَكة رقم ١٠، وأنت تقف في الدركة رقم ٢٠، فتنظر له وتقول أنه قد سبَقَني، لكنك إذا عدتَ للتمسّك بالوحي ستقول: نعم، بالفعل هم في دركة أقل.

{قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ * قُلْ إِن ضَلَلْتُ}[سبأ ٥٠]، الختام كما قلنا أنه يوجد نوع من التنزل في الخطاب؛ بمعنى أنني إذا ضللتُ فإنّما أضل على نفسي، أى يعود وبال الضلال على نفسي، وأيضًا بسبب نفسي.

تقرير في ختام السورة أنه لا توجد هداية بدون وحي، ودعوة للرجوع إلي الوحي:

{وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي}[سبأ ٥٠]، هذه الآية جميلة جدًا، فالنبي ﷺ يخبرهم أنّه لا توجد هداية بدون وحي، أي هداية في حياتي سببها الوحي، هذا ما يقوله لهم النبي ﷺ أن أي هداية في حياتي {وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا}، أي بسبب، فالباء للسبب. {فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي}[سبأ ٥٠]، فلا توجد أي هداية في حياتي إلا سببها وحي من عند الله ﷻ.

{إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ}[سبأ ٥٠]، قريب إليّ يعلم احتياجي، ويعلم احتياج الناس، سميعٌ بأقوالهم.

الختام التخويفي في المناظرة:

{وَلَوْ تَرَىٰ}[سبأ ٥١] يختم هنا بالمشركين الذين يحاربون الدين، فكما قلنا أن المناظرات دائمًا ما تقوم فيها بختام تخويفي ثم تتركه، فيقول الله ﷻ للنبي ﷺ:بعدما قلتَ لهم في خمس آيات متتالية {قل}، ولو ترى هؤلاء المشركون بعد أن أعرضوا عن الدين {إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ}[سبأ ٥١].

متى يفزع الإنسان؟ عندما يرى شيئًا مُرعبًا.

قيل أن هذا الفزع له ثلاثة مواطن:

١. عندما يرى المشرك جنود المسلمين في بدر؛ ويرى الملائكة وهى تقاتل مع المسلمين في بدر.

٢. وساعة الموت؛ عندما يرى ملائكة الموت وهي تضربه على وجهه وعلى دُبره.

٣. ويوم القيامة عندما يرى ملائكة تجر النار لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك.

في هذه المواطن الثلاثة يفزع المشرك.

بعد الفزع يأتي الهرب لكن، لا مفر!

{وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا}[سبأ ٥١]؛ رد الفعل الطبيعي عندما يفزع أن يجري محاولاً الهرب مما يُفزعه، فعندما يهم بالجري لا يجد ملجأً.

{وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ}[سبأ ٥١]؛ لأن كل مكان هو قريب إلى الله ﷻ، فهو لن يستطيع الهرب من ربه.

فكلمة {أُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ}[سبأ ٥١] تدل على أن الإنسان أينما ذهب فهو قريب من الله، سواء ساعة الموت أو في الدنيا أو يوم القيامة على اختلاف الأقوال الثلاثة التي ذكرناها.

خطورة الإذعان لأمر الله بعد فوات الأوان :

{وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ}[سبأ ٥١]، ماذا سيقول أول ما يأتيه الموت أو عندما يرى أهوال القيامة؟ سيقول: {آمَنَّا بِهِ}[سبأ ٥٢] آلآن؟ ألم أحدثك طوال السورة، وأقول لك قال الله، وأوضح لك أنه الملِك وأنه علام الغيوب، وتُتلى عليك الآيات. آلآن قالوا {آمَنَّا بِهِ}[سبأ ٥٢] ؟

فحينها يقول الله ﷻ لهم {وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ}[سبأ ٥٢]، ما معنى التناوش؟ التناوش تعني التناول.

أصل كلمة المناوشة: النوش؛ هو أن تحاول الإمساك بشيء قريب منك، مثلًا أريد أن أمسك بالمصحف القريب مني فأنا أحاول أن أتناوشه، التناول من مكان قريب.

فعندما يقترب الجيشان من بعضهما دون أن يلتحما مع بعضهما ويكونان قريبان من بعضهم البعض يقال: حصل بينهما مناوشات؛ لأنهم على مسافة قريبة من بعضهم.

فكلمة {أَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ}[سبأ ٥٢]؛ كأن الله ﷻ شبّه الإيمان بشيء قريب. فكأنه يريد أن يمسك الإيمان لكن أنَّى له من مكان بعيد، وقد كان أمامه.

تخيل معي المشهد: إنسان انتقل إلى عالم الآخرة، والإيمان كان في الأرض والآن هو يُحاسب فيقول: آمنا به، فيقول الله ﷻ له: **هل تتناول الإيمان الآن بعدما كان أمامك من قبل؟ ولطالما عُرض عليك وأنت أعرضت عنه،** {وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ}[سبأ ٥٢].

لقد **ابتعدت عن التوبة**، لن ينفعك ندمك وحسراتك وقولك "ليتني كنت فعلت كذا، ليتني تبت"، فقد كان هذا ينفعك في الدنيا أما الآن فلا، {وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ}[سبأ ٥٣]؛ كان الإيمان أمامك وكفرت به.

{وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ}[سبأ ٥٣]؛ **لم يكفر فقط بل كان يقذف أهل الحق بالباطل**، وقد قمنا بالمقارنة بين {إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}[سبأ ٤٨]، وبين أهل الباطل {وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ}[سبأ ٥٣].

آخر آية في السورة تتناسب مع جو السورة، حيث قلنا أن المشركين في السورة معهم أموالًا وأولادًا وعدة، معهم كل الزينة، كما قال تعالى {وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا}[سبأ ٣٥].

يزول غني الدنيا الزائف ويذهب المتكبر الزائف للغني الواحد.

فالله ﷻ يقول في آخر السورة {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ}[سبأ ٥٤]، كل الأمنيات التي كان يتمناها في لحظة الموت وهو يؤخذ من الدنيا، وكأنه يمد يده يريد أن يأخذ الأموال معه فيُمنع، يقال له: لن تأخذ أموالك معك، أموالك التي كنت تفرح بها في الدنيا لن تنفعك.

{وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ}[سبأ ٥٤]؛ يتمنى أن يتنعم بالأموال والأولاد؛ لأنه يعلم أنه سينتقل من الدنيا إلى الدار الآخرة وسيترك كل شيء، **فالكفن ليس له جيوب**، يريد أن يأخذ الأموال معه فيُحال بينه وبين الأموال التي طالما افتخر بها على المسلمين.

{وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ}[سبأ ٥٤].

وقيل: {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ}[سبأ ٥٤] **أي التوبة**. يقول: "ياليتني أتوب" ويندم على كل لحظة طعن فيها الدين، وعلى كل موقف وقف فيه ضد الدين يوم القيامة، فيُقال له: لن تنال التوبة، لقد انتهى موضوع التوبة، بل لن يؤذن له حتى في الاعتذار، بل تأتي عليه أوقات وهو –والعياذ بالله– في النار يطلب أن يعتذر ولكن الله ﷻ لا يأذن له، بل تأتي عليه لحظات يكون ممنوعًا حتى من الكلام في النار {قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ}[المؤمنون ١٠٨] والعياذ بالله.

{وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ}[سبأ ٥٤]؛ كان كلما أوشك القرآن أن يؤثر فيه **يشك** فيبتعد عن القرآن، كلما يتأثر ويوشِك على الالتزام بالقرآن **يبدأ في الشك** ويبتعد، **ظل يعيش في الشك حتى مات**، لم يترك نفسه، لو أنه ترك نفسه للقرآن وتفكر {أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا}[سبأ ٤٦] فلو أنه ابتعد عن ضغط المجتمع وفكر قليلاً وأخذ القرار.

كثير من الناس لا يستطيعون أخذ القرار، أبو طالب عم النبي ﷺ وهو على فراش الموت لم يستطع أن يأخذ القرار وهو يقول للنبي ﷺ : "لقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينًا، ولولا الملامة أو حَذار المسبة لكنتُ سمحًا بذاك مبينًا" يقول: لولا أن يلومني الناس أو يسبوني لكنت مسلمًا منذ زمن.

حتى آخر لحظة وهو ينازع الموت، يقول له النبي ﷺ : (قل كلمة أشفع لك بها عند ربي)[٤]! وأبو جهل ينظر له ويقول: أتترك دينك ودين آبائك؟

فكانت آخر كلمة قالها أبو طالب: بل هو على ملة عبد المطلب، لم يستطع أن يأخذ القرار!

كثير من الناس لا يقدر على أخذ القرار، **لكن لابد للإنسان من أن يقتحم العقبة**، لذلك قال الله ﷻ على الوليد بن المغيرة عندما ابتعد عن الضغط المجتمعي وسمع القرآن، قال تعالى: {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ}[المدثر ١٨] المشكلة أنه أخذ يُقدر الأمور، فلو أنه قد أخذ القرار دون أن يفكر ويقدر كثيرًا لكان قد أسلم، لكن سبحان الله كل شئ بقدَر.

إذًا فلابد للإنسان أن يُسرع في طاعة الله ﷻ ولا يتردد في طاعته.

بفضل الله ﷻ أتم الله علينا هذه النعمة العظيمة؛ تفسير سورة سبأ.

المرة القادمة بإذن الله ﷻ نستفتح سورة فاطر، وبإذن الله ﷻ من المرة القادمة السورة التي نتمها نمتحن فيها بإذن الله، مثلًا ننهي السورة في خمسة دروس، وبإذن الله نقوم بعمل مذكرة صغيرة لكم، وستكون هناك جائزة كبيرة إن شاء الله مع كل سورة، بمعنى أن آخر سورة فاطر إن شاء الله نقوم بامتحان على سورة فاطر من الدروس ومن المذكرة التي سنوزعها التي ستتضمن شرحًا سريعًا لسورة فاطر. فسنقوم بعمل امتحان بعد كل سورة وستكون هناك جوائز قيمة للأول بإذن الله.

أسأل الله ﷻ أن يجعلنا من أهل القرآن، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

[٤] [عن المسيب بن حزن:] لَمّا حَضَرَتْ أبا طالِبٍ الوَفاةُ، جاءَهُ رَسولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أبا جَهْلٍ، وعَبْدَ اللَّهِ بنَ أبِي أُمَيَّةَ بنِ المُغِيرَةِ، فَقالَ: أيْ عَمِّ قُلْ: لا إلَهَ إلّا اللَّهُ كَلِمَةً أُحاجُّ لكَ بها عِنْدَ اللَّهِ فَقالَ أبو جَهْلٍ، وعَبْدُ اللَّهِ بنُ أبِي أُمَيَّةَ: أتَرْغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَعْرِضُها عليه، ويُعِيدانِهِ بتِلْكَ المَقالَةِ، حتّى قالَ أبو طالِبٍ آخِرَ ما كَلَّمَهُمْ: على مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ، وأَبى أنْ يَقُولَ: لا إلَهَ إلّا اللَّهُ، قالَ: قالَ رَسولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ عليه وسلَّمَ: واللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لكَ ما لَمْ أُنْهَ عَنْكَ فأنْزَلَ اللَّهُ: {ما كانَ للنبيِّ والذينَ آمَنُوا أنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} وأنْزَلَ اللَّهُ في أبِي طالِبٍ، فَقالَ لِرَسولِ اللَّهِ صَلّى اللهُ عليه وسلَّمَ: {إنَّكَ لا تَهْدِي مَن أحْبَبْتَ ولَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشاءُ}

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٤٧٧٢ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٤٧٧٢)، ومسلم (٢٤)